

الزوايا السلطانية في العهد المريني محاولة في التركيب

د. أحمد الزاوي

١ المتفق عليه بين الفقهاء أن لفظة: الزاوية^١ محدثة. ويستفاد من روايات الإخباريين أن اللفظة نفسها لم تكن واردة قبل القرن 7هـ/13م. وشاهد ذلك أن الكلمة لم ترد في: المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد، لأبي عبدالله محمد بن عبد الكريم التميمي (ت. 603-604هـ) الذي ألفه صاحبه زمن يعقوب المنصور الموحي^٢، ولا في التشوف إلى رجال التصوف، لأبي الحجاج يوسف ابن الزيات التادلي (ت. 627هـ) الذي ظهر كتابه في العهد الموحي الأخير^٣. ويعني هذا أن اسم الزاوية لم يكن واردا في ما يصطلح عليه بمحلة العباد، ولا في مرحلة « التوحد الصوفي »، حيث كانت المؤسسة السائدة هي الرباط، جمع: رُبط ورباطات أو الرابطة، جمع: رباطات.

وفي القرن السابع الهجري/13م نفسه بدأت كلمة الزاوية، بالمفرد أم بالجمع، في الظهور بالكتابات المغربية، ولاسيما منها سير الصالحين، لتنتشر بشكل واسع في القرن الموالي، كما حصل في: المقصد الشريف والمنزاع اللطيف في ذكر صلحاء الريف لعبد الحق البادسي^٤، وأنس الفقير وعز الحقير لأحمد ابن الخطيب القسنطيني المعروف بابن قنفذ^٥. وقد أطلقت الزاوية على الرباطات وعلى ما شاكلها في وظيفتها، سواء أكانت امتدادا للرباطات نفسها أم مبنية على أنقاضها أم قامت في أماكن جديدة؛ المهم أن أصحابها كانوا من أهل التصوف.

نهتم بهذا التحديد لأن الفترة التي ظهر فيها اسم الزاوية وانتشر للدلالة على زوايا أهل التصوف، ظهرت زوايا من صنف آخر يصح أن نسميها زوايا سلطانية، لكونها نشأت بأمر من السلاطين، وقامت بدورها المنوط بها بإشرافهم، ونعني هنا : سلاطين بني مرين . وهذا ما يفيد في القول بأن الزوايا السلطانية اتخذت خطا متوازيا مع خط الزوايا الصوفية سواء من حيث جذورها أم في وظائفها الأساسية؛ فالأولى أصلها هي الربط أو الرابطة، دون أن يعني هذا طبعاً أن كل الربط تحولت إلى زوايا، والخيط الواصل بينهما هو التصوف أو بالأحرى رجال التصوف، لأنها من إنشائهم، وهم الذين كانوا يشرفون عليها، لما كانت تسمى ربطاً، ثم لما غدت زوايا. أما زوايا السلطان فنجد لها جذورا فيما يسمى بدار الكرامة التي اشتهرت في أيام يعقوب المنصور الموحد⁷، والخيط الرابط هنا أنها من إنشاء السلطان وتدبير أعوانه⁸.

وإذا تركنا زوايا أهل التصوف جانبا، نرى أن سمات الزوايا السلطانية، تتمثل في المحاور التالية:

1- زمن واحد ومجالات عدة :

وقفنا على زوايا عديدة في أماكن شتى، وهي كما يلي :

- زاوية شالة، وبداياتها من تأسيس أبي سعيد عثمان بن عبدالحق المتوفى عام 638هـ/1240م⁹. وقد اتخذ منها أبو يوسف يعقوب نفسه مقبرة لدفن ملوك وأعيان بني مرين، وبها دفن جثمانه هو أيضاً، بعد أن نقل من الأندلس¹⁰. كما دفن بها بعدئذ أبو الحسن وزوجته شمس الضحى¹¹.

- زاوية تافراطست التي أقيمت على ضريح عبدالحق بن محيو، أول أمراء بني مرين (ت. 614هـ/1217م)، وقد بناها أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق عام 1285هـ/1285م¹².

- الزاوية التي أنشأها أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب (ت. 706هـ/1307م) جنوبي غربي سبت الاودايا بضواحي فاس، على أساس أن تكون مدفناً له؛ وقد وصفها الرحالون بأنها زاوية كبرى¹³.

- زاوية شرق مدينة فاس، يسميها لسان الدين ابن الخطيب بالزاوية الحديثة¹⁴.
- زاوية الحجاج، بمدينة مكناس، كانت قائمة منذ عهد أبي الحسن، يجتمع فيها الحجاج ليخرجوا مجتمعين للالتحاق بالركب¹⁵، ولعلها بنيت قبل ذلك.
- الزاوية القُدُمي، والزاوية الحديثة خارج مكناس¹⁶، وهما من بناء السلطان أبي الحسن المريني، وكان قد بنى الزاوية القُدُمي في زمان أبيه: السلطان أبي سعيد عثمان، والجديدة حين تولى الخلافة¹⁷.
- زاوية بسلا، وهي من تأسيس أبي الحسن، داخل سور مدينة سلا، في آخر ذي الحجة عام تسعة وثلاثين وسبعمائة/1339م¹⁸.
- زاوية سبتة، بخارج باب فاس أحد أبواب أفراك، وبنيت في عهد أبي عنان فارس بن أبي الحسن (ت. 759هـ/1358م)¹⁹.
- زاوية بعين أنغلي، وراء أسوار مدينة تازة، خارج باب الجمعة التحتية، أسسها أبو عنان أيضا²⁰.
- الزاوية العنانية وتسمى أيضا بالزاوية المتوكلية، نسبة إلى مؤسسها أبي عنان الملقب بالمتوكل على الله. ويرجع تأسيسها إلى عام 754هـ/1353م، حيث قامت على الضفة الشمالية لوادي الجواهر خارج المدينة البيضاء، المعروفة باسم فاس الجديد²¹.
- زاوية النسائك²²، وقد تمّ بناؤها أيام أبي عنان في 27 شعبان 757هـ/12 غشت 1356م²³، خارج مدينة سلا، مقابلة ضريح أبي العباس ابن عاشر، حين كانت قرية صبرة عامرة هناك²⁴.
- زاوية بظاهر تلمسان، لعلها من بناء أبي عنان²⁵.
- زاوية في حي التيالين بعدوة فاس القرويين، أمر ببنائها الأمير أبو سالم إبراهيم المستعين بالله بن أبي الحسن، تاسع ملوك بني مرين (ت. 762هـ/1361م)، وتمّ بناؤها في أواخر رمضان عام 762هـ/أوائل غشت 1361م²⁶.

والملاحظ أن الزوايا المذكورة جميعها تقع في مملكة فاس، شمال أم الربيع. فماذا عن جنوب البلاد؟

يذكر في هذا الشأن أن أبا يوسف يعقوب بنى الزوايا في الفلوات، وأوقف لها الأوقاف الكثيرة²⁷. وتحدث ابن بطوطة عن حسنات أبي عنان فارس: «وما أمر به من عمارة الزوايا بجميع بلاده... ما لم يفعله أحد من الملوك غير السلطان أتابك أحمد» (في المشرق)²⁸. ونقل محمد بن علي الدكالي هذا الكلام بصيغة أخرى تفيد أن أبا عنان بنى الزوايا في جميع مناطق المغرب، فقال: «أمر السلطان أبو عنان بعمارة الزوايا بجميع بلاده لإطعام الطعام للوارد والصادر، وقد جعل التصدق على المساكين بالطعام يوميا رحمه الله»²⁹. ومن ذلك أيضا قول الفقيه الكانوني، في سياق حديثه عن آثار أبي الحسن المريني، والد أبي عنان: «ومنها ما أنشأه من المساجد والزوايا والرباطات والقناطر والسقايات والمصانع مما يضيق عنه المقام»³⁰.

لكن لا أحد من هؤلاء أو غيرهم، حسب علمنا، سمي أو حدد موقع واحدة من هذه الزوايا جنوب أم الربيع، اللهم إلا الحديث الذي ورد عن مؤسسة شبيهة بالزاوية في أسفي، ضمن آثار أبي عنان، وتسمى: دار الأضياف، وفيها يقول ابن بطوطة:

هذا محل الفضل والإيثار * والرَّفَقِ بالسُّكَّانِ والزُّوَارِ
دارٌ على الإحسانِ شيدت * والتُّقَى فجزاؤها عقبى الدار
هي ملجأ للواردين وموردة * لابن السَّيْلِ وكلِّ راكبٍ سارٍ³¹.

وفي غياب أخبار أخرى عن الزوايا السلطانية التي من المفترض أنها إنشئت في المناطق الجنوبية، وإلى حين إثبات هذا الافتراض أو نفيه، يمكن القول إن هذا النوع من الزوايا تركّز في المواقع الأكثر سكانا، والأهم من الناحية الاستراتيجية، سواء أكان على المستوى التجاري أم المستوى الفكري. وكان معظمها خارج المدن، على نحو قول محمد بن علي الدكالي، في كلامه عن أبي عنان،: إنه بنى زواياه كلها «خارج مدنه»³².

أما على المستوى الزمني، فالملاحظ أن السلطة المرينية اتخذت من تأسيس زواياها استراتيجية أساسية، باعتبار استمرار العمل بها دائما، مما يفيد نجاعة هذه المؤسسة في سياسة الدولة. وقد بلغ العمل بها أيام أبي الحسن ثم أبي عنان أوجه، علما أن تشييد الزوايا السلطانية ظل ساريا بعد وفاة أبي عنان.

2- الشكل : بناءات فخمة

على عكس زوايا أهل التصوف، يشار إلى الزوايا السلطانية بأنها ملوكية البناء، بالنظر إلى مساحاتها الشاسعة، وتعدد مرافقها، وطبيعة هندستها، والمواد المعتمدة في البناء والتزيين والتأثيث. فقد كتب ابن أبي القاسم الأنصاري عن زاوية سبتة قائلا: «من الزوايا: [الزاوية] الكبرى التي ابتناها السلطان الأشهر أبو عنان بن أبي الحسن بخارج باب فاس أحد أبواب أفراك وأعدّها هناك للغرباء، ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم، (ملیحة) [ملوكية] البناء، كثيرة الزخرفة والتنميق، متسعة الساحة، متعددة المساكن، وصومعتها من أبدع الصوامع بسبتة صنعة، وأتمها إحكاما»³³؛ يعني: زمن تأليف الكتاب، وهو عام 825هـ / 1422م.

ووصفت زاوية أبي الحسن بداخل سلا بأنها «... حسنة التخطيط، مكتوب على بابها الغربي الكبير العجيب البناء البديع المثال، بخط كوفي رائع، بعد الافتتاح بالنعوذ وبسملة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: أمر بهذا مولانا السلطان الأجل العادل المقدس المجاهد أمير المسلمين ناصر الدين أبو الحسن ابن السلطان الأجل الصالح العادل المجاهد المقدس أمير المسلمين ناصر الدين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق خلد الله ملكهم. وكان الفراغ منه في آخر ذي الحجة عام تسعة وثلاثين وسبعمائة»/1339م³⁴.

وبخصوص الزوايا العنانية، قال ابن الحاج عن الزاوية المتوكلية بفاس، وهي في رونق جدتها: «إنها شامخة البناء، منفسحة الساحة، مبيضة المظهر، يقوم في قلبها جامع زينت سقفه ببدايع الزخارف، وقابله في الشمال قبة سامقة، ازدوج فيها الحسن الباطن بالجمال الظاهر... ويدور بالزاوية من جهاتها الأربع، مباحات بديعة الاختراع، متقابلة الأشكال والأوضاع، قامت أساطينها

كأنها عرائس تجلي، وكسيت أرضها من الصنائع حللا ... وقد امتد من الجامع إلى القبة صهريج بديع الطول والعرض، ينتصب على حافتيه أسدان مصوران من الصفر، ليقظا من أفواههما الماء النازل للصهريج. وفي كل ركن من أركان الزاوية باب ينفذ إلى دار بديعة البناء، متناسبة الأجزاء مكتملة المنافع، إلا الباب الواقع في الشمال الغربي، فإنه يشرع إلى دار وضوء مستوفية المرافق... والديار الثلاث: إحداها لإمام الصلاة، والأخرى للقائم بالآذان، والثالثة للنظر في الأوقاف، المتصرف في إعداد الطعام وترتيب الناس ... ويتصل بالزاوية دار معدة لاستقبال الواردين، مفتحة أبوابها لنزول القاصدين، تقابلها دار أخرى برسم الطبخ... وللزاوية والدارين المتصلتين بها: باب جليل في جهة الشرق، مقابل لمدينة فاس الجديد، ومقربة منه قامت المنارة العالية، وهي من أحسن الصوامع صنعة، تكسوها أشغال الزليج الملون في شكل بديع، وتتوجها تقافيح مذهبة... ويتصل بالزاوية من الغرب الشمالي روض أريض مغترس بالأشجار المنتظمة سطورا بديعة الجمال... ولتجهيز الزاوية بروافد الدورة المائية، كان بغربها صهريج عميق تتدفق المياه في جنباته. وفي موازاتها، خارجا عنها، قامت سانية بديعة الأشكال، لسقي الروض وسد حاجة المرافق من الماء... ثم نصب على وادي الجواهر دولاب يضاعف كميات الماء، لينصب في قناة واصله إلى الزاوية»³⁵.

ذلك وصف الزاوية المتوكلية بضاحية فاس الجديد، حسب المصدر المنوه به. ويؤكد ابن بطوطة من جهته تفوق هذه المؤسسة إطلاقا على مثيلاتها، في قوله: إنها أعظم زاوية شهدها في المغرب والشرق³⁶، في إتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجبس³⁷. قال ابن بطوطة: «... وعمارة الزاوية العظمى [المتوكلية] على غدير الحمص خارج المدينة البيضاء [فاس الجديد] فلا مثيل لها أيضا في عجب وضعها وبديع صنعها. وأبدع زاوية رأيها بالشرق زاوية سرياقص التي بناها الملك الناصر، وهذه أبدع منها وأشد إحكاما وإتقانا. والله سبحانه ينفع مولانا أيده الله بمقاصده الشريفة، ويكافئ فضائله المنيفة، ويدعم للإسلام والمسلمين أيامه، وينصر ألوته المظفرة وأعلامه»³⁸.

وقالوا عن زاوية النساك بسلا : «هذه الزاوية من أقدم الزوايا بسلا، بناها أبو عنان.... من أحسن المباني وأنزهها وأجملها منظرا، وأظرفها شكلا، وأبهجها وضعاً، حتى قال ابن الخطيب في حقها من مقامات البلدان في معيار الاختيار : والزاوية كأنها البستان. وقد كتب على بابها الغربي المقابل لضريح أبي العباس [ابن عاشر] في لوح من حجر مركب في تاجها ما نصه : الحمد لله، أمر بهذه الزاوية المباركة أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، أبو عنان بن مولينا الخلفاء الراشدين، الملوك الطاهرين، بني عبدالحق، أعلى الله آثارهم، وشيد منارهم، فرغ من بنائها في 27 شعبان عام سبعة وخمسين وسبع مائة»/ غشت 1356م³⁹. وأضاف الراوي نفسه عن الزاوية «لها بيوت كثيرة وقبة للصلاة، ويجري إليها الماء الجاري من سور الاقواس، ولها بابان : أحدهما مواجه لسلا، والآخر لشالة، وهو المقابل لضريح أبي العباس [ابن عاشر]، وكانت تسمى زاوية النساك، كما عند ابن الخطيب في الإحاطة»⁴⁰. وكانت تشتمل على حديقة جميلة، وغرف عديدة، وقاعة للصلاة، وميضية في الجهة القبلية منها، مزودة بالمياه الجارية من بئر هناك، وكان للزاوية بابان كبيران، أحدهما يتجه نحو مدينة سلا، والآخر يتجه نحو مدينة شالة⁴¹.

ومن تقايد محمد بن علي الدكالي في الحزاة الصبيحية بسلا : « أن حزام باب زاوية النساك منقوش بالآيتين 133 و 134 من سورة آل عمران، وذلك بعد التعوذ والبسملة والتصلية، وهما : ﴿مَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الْكَايِنُ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاثِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾»⁴².

بل يفهم من تصاميم الزوايا العنانية أنها متماثلة، وكأن مهندسها وواضع تصاميمها هو شخص واحد⁴³، مما يحيل على أنها كانت في مقام الزاوية المتوكلية . بل ذهب بعض الباحثين إلى القول: إن كل واحدة من زوايا أبي عنان كانت تسمى بالزاوية المتوكلية⁴⁴. هذا عن الظاهر، فماذا عن الباطن، يعني الوظيفة؟

3- وظائف تقليدية : خيرية وروحية

تأسست الزوايا السلطانية الأولى على أساس أن تكون أمكنة لأضرحة فخمة للأمراء، على غرار زاوية شالة، وهي من تأسيس أبي سعيد عثمان بن

عبدالحق، كما تقدم، والتي صارت مدفن العديد من جثامين سلاطين وأمراء بني مرين⁴⁵. ثم زاوية تافراطست التي أقيمت على ضريح عبدالحق بن محيو، أول أمراء بني مرين (ت. 614هـ/1217م)؛ وقد بناها أبو يوسف يعقوب بن عبدالحق عام 684هـ/1285م⁴⁶، ثم الزاوية التي أنشأها أبو يعقوب يوسف بن أبي يوسف يعقوب (ت. 706هـ/1307م) بضاحية فاس، لتكون مدفناً له. قال الحسن الوزان: «الزاوية بلدة صغيرة بناها يوسف، ثاني ملوك بني مرين، على بعد أربعة وعشرين ميلاً من فاس، وأسس بها زاوية كبرى أوصى أن يدفن فيها، لكن القدر لم يشأ ذلك فقد قتل أمام أسوار تلمسان أثناء حصاره لها، وانهارت الزاوية منذ ذلك الحين، وتهدمت ولم يبق قائماً بها غير جدران الزاوية...»⁴⁷.

لكن الوظيفة الأساسية للزوايا السلطانية المرينية كانت هي الإطعام والإيواء، بما فيها أولى تلك الزوايا، علماً أن أبا يوسف الذي تنسب إليه أولاهها أوقف لها الأوقاف الكثيرة لإطعام عابري السبيل وذوي الحاجات⁴⁸. وقد أشار ابن مرزوق إلى وظيفة الإطعام في تعريفه للزوايا في زمانه بقوله: إنها «عبارة عن مواضع معدة لإطعام المحتاجين من القاصدين»⁴⁹، ولا شك أنه يقصد هذا النوع من الزوايا، رغم أن شهادته تعم الصنف الصوفي منها. ويبين ابن بطوطة هذا الترخيع بقوله: «أمر السلطان بعمارة الزوايا في جميع البلاد لإطعام الطعام للوارد والصادر»⁵⁰. ثم عبر عن ذلك شعراً، واصفاً وظيفة الزاوية المتوكلية، كما جاء في شعره المرقون على بابها:

هَذَا مَعْلُ الْفَضْلِ وَالْإِبْثَارِ * وَالرُّفْقِ بِالسُّكَّانِ وَالزُّوَارِ
دَارٌ عَلَى الْإِحْسَانِ شِيدَتْ * وَالتَّقَى فَجَزَاوْهَا عَقْبَى الدَّارِ
هِيَ مُلْجَأُ الْوَارِدِينَ وَمَوْرِدٌ * لِابْنِ السَّبِيلِ وَكُلِّ رَاكِبٍ سَارٍ⁵¹.

وقياساً عليه أيضاً، نفترض أن إطعام الطعام كان عادة سارية في زاوية القراء⁵²، التي أحدثها المستعين أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن المريني، في رمضان من عام 762هـ / أوائل غشت 1361م، في حي التيالين، يسار قبلة جامع القرويين بفاس؛ فرغم أنها أنشئت في الأصل لقراءة القرآن، و«... رتب فيها قراء يقرؤون

القرآن، ويختمونه في كل سبعة أيام بطول [سبعة أيام] الأزمان، وأجرى لهم جناية في كل شهر ينتفعون بها، ويرتبون لذلك بسببها ...»⁵³.

ومن ثمة، توفرت الزوايا السلطانية على دور معدة للطبخ وملحقاتها، وكانت نيران مطابخها لا تكاد تخمد، لكثرة الطعام المعد للطبخ، وكثرة الوافدين⁵⁴. أما الأطعمة فكانت في تلکم الزوايا مما تشتهيہ الأنفس⁵⁵.

وَمَنْ أَكَلَ بَاتَ، وربما أصبح وظل ثم بات مرة أخرى، أو مرات متتالية. ولذلك كان الإيواء من الخدمات الأساسية التي قدمتها الزوايا المرينية السلطانية للوافدين عليها. على نحو قول ابن جزري في شعر مكمل لما سبق:

هي ملجأ للواردین ومُورد * لابن السَّيْلِ وكلُّ ركب سارِ
آثار مولانا الخليفة فارس * أكرم بها في المجد من آثارِ
لا زال منصور اللّواء مُظفراً * ماضي العزائم سامي المقدار⁵⁶

وجمع الأنصاري بين وظيفتي الإطعام والإيواء في حديثه عن الزاوية العنانية بسبته، حيث قال : «أعدها [السلطان] هناك للغرباء، ولمن اضطر إلى المبيت بها من التجار وغيرهم»⁵⁷. وكذلك فعل لسان الدين ابن الخطيب في حديثه عن زاوية القُدُمى خارج مكناس، حيث كتب ما يلي : «الزاوية القُدُمى المعدة للوارد، ذات البركة النامية، والمثذنة السامية، والمرافق المتيسرة، يصاحبها الخان البديع المنصب الحصين الغلق، الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض، يبتغون من فضل الله تعالى...»⁵⁸.

لذلك، اختار السلاطين لزواياهم مواقع خاصة خارج أسوار المدن، مما جعلها ملجأ لمن لم يدرك أبواب المدن مفتوحة من التجار⁵⁹، والمسافرين، وأبناء السبيل، والمارة، والغرباء، والطارئين، والمحتاجين، ومن لا يملك منهم قوتا ولا مأوى. وقد عبر محمد بن علي الدكالي عن ذلك بوضوح في قوله : «وكان قصد

أبي عنان ببناء هذه الزوايا خارج مدنه نزول الواردين عليها من الغرباء والمنقطعين وذوي الحاجة وأعيان الدولة وكبرائها»⁶⁰.

كما تفيد هندستها المتميزة بكثرة الغرف، وتخصيصها حسب الواردين إليها، أن الزوايا السلطانية أنشئت لإطعام الواردين وإيوائهم⁶¹. وقد ركز ابن الحاج النميري على هذين الأصلين، يعني الإطعام والإيواء، في بناء الزوايا السلطانية المرينية، بقوله: إنها بنيت «... ليقدم عليها الوفود، وتكرم بمعادها العهود، وتحط بها الرحال، وتستقدم ببركتها الآمال، وتستكفي بجمالها الخطوب ... وتيسر للضعفاء الأقوات»⁶².

لذلك قيل إن المغرب المريني كان يستعمل الزاوية للدلالة على مؤسسات إحصانية تشيد بأرياض المدن أو في الفلوات، برسم استقبال الواردين عليها لإيوائهم والقيام بضيافتهم⁶³. وفي هذا الشأن نشير إلى أن الزاوية المتوكلية تسمت بهذا الاسم نسبة إلى مؤسسها أبي عنان الملقب بالمتوكل على الله، ثم صارت تعرف بدار الضيفان، تلميحا لوظيفتها الإحصانية⁶⁴.

والأكيد أن الكلام عن دار الضيافة أو دار الضيوف يذكرنا بدار الكرامة التي أنشأها يعقوب المنصور الموحيدي بمراكش⁶⁵، لكن الزاوية المرينية لم تكن مثلها خاصة بالضيافة. بل كان لها وظائف أخرى هامة لا تقل شأنًا عن الوظيفة الإحصانية.

نعني هنا خصوصا الوظيفة الروحية، حيث حرص بنو مرين على أن تكون الزوايا ضمن مركب ديني متكامل، غالبا ما تكون من إنشاء السلطة المرينية نفسها، وقوامها: المسجد والمدرسة، بالإضافة إلى الزاوية والحمام. وعلى سبيل المثال صارت رابطة العباد بظاهر تلمسان تضم زاوية أبي مدين، وجامع ومدرسة للعلم، بالإضافة إلى مقبرة تضم رفات كثير من الصالحاء⁶⁶.

ويحيل على هذه الوظيفة المشرفون على تلك الزوايا، وعلى رأسهم مقدم الزاوية، مثل الشيخ الزاهد أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي مدين، مقدم الزاوية المتوكلية⁶⁷. ومعناه أن دور أمثال هذا الرجل كان هو تلقين الواردين التربية

الروحية⁶⁸، التي تعتبر في الزوايا الصوفية أس البناء، قبل الإطعام والإيواء. وهذا النشاط الديني بالذات هو الذي يجعل من هذه الدور للضيافة بمثابة زوايا. ومن ثمة أيضا، كان لكل زاوية سلطانية مسجد، تؤدي فيه التكاليف الشرعية⁶⁹. وربما بسبب ذلك أيضا ذكر محمد بن علي الدكالي أن ابن قنفذ سمي زاوية النساك ب: «جامع العلالي»⁷⁰.

إلى ذلك، كان المقيمون بتلك الزوايا السلطانية يداومون على «مواصلة الأذكار والدعاء بالأسحار والتسبيح بالعشي والإبكار»⁷¹، كما في حديث الأنصاري عن زاوية سبتة، «سالكين [في ذلك] مسلك أهل الطريق، دارجين على مقامات أهل التحقيق، مكرمين للضياف، موضحين لهم سبل الائتلاف»⁷². وفي أنس الفقير شهادة على لسان ابن قنفذ يقول فيها: «رأيت منهم [الصوفية] شيخا خارج مدينة سلا في مسجد منقطع يقال له العلاني، لا أذكر اسمه، ويغلب على ظني أنه من بلاد حاحة، وكنت أسمع عنه أنه يتحدث عن أحوال الدنيا»⁷³. وقد أدى ابن قنفذ بعض صلواته في هذا الجامع، يعني زاوية النساك، مع الوالي والشيخ الصوفي المذكور⁷⁴. ويعني هذا أن بعض الزهاد والعباد وجدوا في زاوية النساك مكانا مناسباً للخلوة⁷⁵، على غرار لسان الدين ابن الخطيب، الذي كان يتحنث فيها الليالي ذوات العدد، ويقصده الزوار من الأدباء والعلماء المترددون بين سلا وفاس⁷⁶. وتحدث ابن الخطيب نفسه عن زاوية المسجد الجامع بآسفي، والتي رتب فيها أبو عنان فقراء للذكر⁷⁷. وكذلك كان الأمر بأكبر زاوية عنانية بفاس، حيث انتظم فيها بإشراف من السلطان «... جملة من الفقراء أولي الأسرار القلبية والأنوار القدسية، ليقيموا هنالك لإقامة الذكر»⁷⁸.

وقد عبرت عن هذه الوظيفة الروحية كتبات أجنبية، ورتبتها في المقام الأول، بعد الضيافة بشقيها: الإطعام والإيواء، على نحو ما جاء في تعريف دائرة المعارف الإسلامية للزاوية بأنها: «مدرسة دينية، ودار مجانية للضيافة، ... تشبه الدير في العصور الوسطى»⁷⁹.

لكن هل كان هذا القصد مجردا، ولوجه الله؟

إننا نعتقد أن لظاهرة الزوايا السلطانية أبعاداً أخرى سياسية.

4- الوجه السياسي :

تتجلى ملامح الوجه السياسي للزوايا السلطانية في إشراف السلطان بنفسه على تدشينها رسمياً. وبهذه المناسبة يكون الحفل كبيراً، بشهادة إبراهيم ابن الحاج النميري الذي تحدث عن حفل افتتاح الزاوية المتوكلية، نصها: "وفي تلك الأيام جاز مولانا [أبو عنان] أيده الله إلى عدوة سلا، وعبر الوادي الذي حلي في العيون وحلا، ودخل الزاوية التي أمر بنائها للفقراء والمساكين، وجعلها، على شرف همته، من أوضح الدلائل والبراهين، فجاءت من أبداع الزوايا، وأنفس الخبايا، وخصها الحسن بأزفع المزايا، وحبها الجمال بالمرباع والصفايا... فما شئت من ترتيب فائق ومنظر رائع رائق، ووثاقة مبان وأوضاع حسان، وإتقان اختطاط وبراعة استنباط، ومحاسن كأنها درر في أسماط، كاملة المرافق، منفسحة الطرق للطارق، لاتزال آخذة زخرفها متزينة، مطلعة نجوم صنائعها واضحة بيّنة، فائقة أزهار الرّوض الأنيق، بما أودعت من التّرفيش الباهر الجمال والتّنميق. فالأبصار عليها موقوفة، والقلوب للتّنعم بمحاسنها مصروفة... وللفقراء والمساكين بها ما يشتهون: من أكل هني، وعيش رضي، وخير منور ولايلي، ومواصلة أذكار، ودعاء بأسحار، وتسبيح بعشي وأبكار"⁸⁰.

ومن التدشين إلى التسيير، حيث أشرف السلطان على تعيين القائمين على الزوايا، مباشرة أو بشكل غير مباشر، ونعني هنا:

- مقدم الزاوية، ويعرف أيضاً بالقيّم. ويعين بقرار أو ظهير سلطاني⁸¹.

- إمام الصلاة

- المؤذن

- الناظر في الأوقاف والمتصرف في إعداد الطعام، وترتيب الناس⁸².

وتكلّفت السلطة بجرايا هؤلاء المستخدمين، كما تكلّفت بمصاريف الإنفاق... فقد حبس السلاطين على الزوايا الكثير من الأوقاف، من الأراضي

والأطيان والحقول والبساتين...⁸³، ثم أجروا للقائمين على شؤون الزوايا مرتبات وجرايا⁸⁴، ووفروا لهم الخدم، وفيهم العبيد، الذين اختصوا بخدمة الواردين على الزاوية وتنظيف مرافقها⁸⁵، الأمر الذي جعل أهل الزوايا في خدمة السلطة يسبحون بالله ويدعون بالتوفيق للسلطان.

وبناء عليه، يبدو أن إنشاء الزوايا السلطانية جزء لا يتجزأ من سياسة الدولة المرينية إلى إحكام السلطة في الدولة الوطنية. ويتمثل هذا التحكم في احتكار السلطة الدينية والسياسية بالمغرب.

وقد طبق المرينيون في هذا السبيل عدة إجراءات متكاملة، تحيل إلى أن تشييد هذه الزوايا يدخل في إطار برنامج رسمي⁸⁶؛ يعني أن الأمر لا يتوقف عند بناء مؤسسات خيرية أو نزالات وفنادق، ولا مجرد مركبات دينية للتربية الروحية، بل يمتد إلى خلق مؤسسة في المجال الروحي، تكون تابعة للدولة، وتكون بمثابة الزوايا النظامية، على قياس المدارس النظامية، وترمي على المدى البعيد إلى جعل الزوايا في البلاد مؤسسات رسمية⁸⁷.

وفي هذا الشأن معلوم أن سياسة إنشاء المدارس النظامية كان القصد منها تنظيم ومراقبة الحقل الثقافي والنشاط التعليمي، ورجاله، ثم تكوين جيل يتكيف تحصيله ومشاريع الدولة المرينية، ومن ثمة، يكون الهدف من إنشاء الزوايا السلطانية وخدمة أهلها هو تكوين جيل مماثل من الصوفية، ومشاركة أهل التصوف غير النظاميين في عملهم، رغبة في إضعافهم، بسلبهم أتباعهم من المعتمدين، وربما تدجينهم.

ومن ثمة، نهج أولو الأمر في البلاد، بقصد إنجاح سياسة تلغيم القطاع الصوفي بتلك الزوايا النظامية، نهجوا سلسلة إجراءات يمكن اعتبارها ممهدة، أو ملحقات لسياسة الدولة، ومنها: تقريب الشرفاء، وإدماجهم في سلك الدولة، وإعفاؤهم من الكلف المخزنية، مما جعلهم أكثر فئات المجتمع جاهاً، بعد رجال البلاط⁸⁸، وكان منهم الصلحاء ذوو النسب الشريف، وكذا سياسة استقطاب بعض الرموز العاملة في التيار الصوفي المغربي، وإسناد بعض الخطط الدينية إليهم مثل القضاء والإمامة والفتوى وقيادة أركاب الحجيج وما إلى ذلك.

أما سياسة إنشاء الزوايا النظامية، فكانت موجهة بالأساس إلى الشخصيات الصوفية من ذوي الزوايا، الذين لم يشملهم الاحتواء بالسبل السابقة. علما أن شيوخ الزوايا هم أكثر أهل التصوف استقطابا لعامة الناس، وأكثرهم اهتماما بمشاكل العامة أيضا، وأشدّهم صلابة في مواجهة أولي الأمر، بحكم التفاف الناس حولهم⁸⁹، بحيث أن انتشار الربط ومراكز الصوفية وما تتضمنه من طوائف لم يعد يسمح بتجاهل هذه الموجة الاجتماعية الكاسحة أو التعامل معها بعنف، لاسيما وقد قدمت لها خدمات جليلة في الصراع مع الموحدين. لمثل هؤلاء، وهم من كبار أرباب الزوايا في المغرب، أنشأ سلاطين بني مريم الزوايا النظامية، ونصبوا فيها شيوخ التصوف، وفتحوها في وجوه الصادر والوارد، على غرار زوايا أهل التصوف، تماما كما فعل الحفصيون الذين تبنا السياسة نفسها⁹⁰.

والخلاصة أن الزوايا السلطانية مؤسسات نظامية رسمية، تنضاف إلى المدارس والحصون وغيرها من مؤسسات الدولة المرينية في مراقبة المجال وتدبير شؤون العباد. وأخيرا إن ما يدعم ارتباط هذه المؤسسة بالسلطة التي أنشأتها، وبخدمة سياسة تلك السلطة، أن الضعف بدأ يدب إليها، مع بداية الأزمة التي عصفت ببني مريم أنفسهم، بعد مرحلة طويلة من الاحتضار. فقد امتد الخراب إلى تلك المؤسسات، خصوصا ونحن نتحدث عن مؤسسات ملوكية البناء والزينة والتأثير. بل بدأ بعض الأمراء أنفسهم بنهب تلك الزوايا، على غرار ما حدث بفاس، حيث باع السلطان أبو سعيد عثمان أحباس زواياها السلطانية لتمويل حروبه حول العرش، فاضطر أهلها إلى مغادرتها، فطالها الإهمال بدورها، وبقيت مجرد بنايات لا دور لها⁹¹، أو تغير دورها إلى أمور أخرى، كما طال الإهمال والخراب مثيلاتها في مواقع أخرى.

وعلى سبيل المثال انتهى مآل الزاوية المتوكلية العظمى، رغم قيام الدلائين بتجديد مرافقها⁹²، إلى الاندثار⁹³. وذكر بعض الباحثين أن الباب الشرقي لمستشفى ابن الخطيب الحالي بفاس يمكن أن يكون البوابة الرئيسية للزاوية المتوكلية⁹⁴. وتهدمت زاوية النساك بسلا عقب حريق شب فيها في تاريخ غير مضبوط، ولم يبق منها سوى الأطلال⁹⁵، منها «البابان الصاعدان في الجو وبعض الجدران»⁹⁶. أما زاوية القورجة بمكناس، وبعد طول مقاومة، ف «تطاول على طرف منها

وزير الحرية السابق الباشا عبدالله بن أحمد وصيرها من جملة روض له، وبقي الطرف الذي به المحراب على حاله. ولما احتل الفرنسيون مكناس جعلوها مركزا للبلدية والمراقبة والشرطة، ثم بني بها بعد ذلك قصر أنيق»⁹⁷. وأما جارتها في باب المشاورين فقد تغير اسمها، كما تغيرت معالمها وصارت مربطا للدواب⁹⁸. «وما زال من أطلالها القوس العالي، ببابها الخارجي يسرة الداخل لدرب سيدي غريب»⁹⁹. وأحسن هذه الزوايا حظا هي زاوية حي التالين بفاس التي تحولت إلى خلوة منسوبة إلى مولاي عبدالقادر الجيلاني، يؤمها مريدو الطريقة القادرية، وعامة الناس، بقصد الزيارة¹⁰⁰. والنتيجة إذن هي خراب تلك الزوايا السلطانية، دون أن يتم احتواء منافستها.

والمهم أن الزوايا السلطانية، أو قل الزوايا النظامية أو الرسمية، فقدت دورها بمجرد انهيار السلطة التي شيدتها ورعتها. لكن المهم أيضا أن بناء الزوايا النظامية من لدن السلطة كانت تجربة فريدة في سياق تاريخ المغرب¹⁰¹، والمهم أخيرا أن المرينين، وهم يحاولون شد الحناق على المعارضة الصوفية، كانوا واعين بخطورة هذه الفئة، ولم يخب حدسهم، حيث فرض أرباب الزوايا الصوفية وجودهم في الأزمة التي أعقبت وفاة أبي عنان المريني، فظهروا على مسرح الجهاد ضد الغزو البرتغالي خلال الأزمة المذكورة، بل كانوا وراء قيام دولة الأشراف السعديين. ومعلوم أن أبناء محمد القائم بأمر الله، ورغم بنائهم دولتهم على أكتاف شيوخ الزوايا، فقد نهجوا سبل المرينيين للحد من نفوذ حلفائهم، وتلك رواية أخرى.



- 1 الزاوية في اللغة هي ركن كل بناء. أما في الاصطلاح فالزاوية تعني المكان الذي يُمارس فيه شعائر تعبدية، فضلا عن أعمال أخرى مكتملة، أساسها خيري، وقوامه إطعام الطعام ومساعدة المحتاجين .
- راجع: محمد مفتاح، الخطاب الصوفي مقارنة وظيفية، مكتبة الرشاد، الدار البيضاء، 1997، ص 37-36
- 2 تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، 2002م.
- 3 التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1984م.
- 4 المطبعة الملكية، 1989م، ص 69.
- 5 اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965م، ص 43، 45، 84.
- 6 على نحو قول ابن مرزوق التلمساني في حديثه عن رباط أبي محمد صالح بأسفي، زمن أبي الحسن المريني : "وهذه الزوايا هي ما يطلق عليه في المشرق الربط والخوانق ... والربط ، على ما هو مصطلح عليه في المشرق، فلم أر في المغرب على سبيلها ونمطها إلا رباط أبي محمد صالح الماجري والزاوية المنسوبة لسيدنا أبي يحيى بن عمر بسلا غربي الجامع الأعظم منها، ولم أر لهما ثالثا"
- المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1981م، ص 211 - 213.
- 7 راجع : محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها العلمي والديني والسياسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، 1409 هـ/ 1998م، ص 24
- نوال كرامو، الزوايا المرينية الرسمية، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا المعمقة، وحدة التكوين والبحث في الرباطات والزوايا في المغرب، شعبة التاريخ، مرقون، خزانة كلية الآداب بالجديدة، 2005م، ص 18 .
- 8 علما أن إكرام المحتاجين كان هو المقصد على الأقل من حيث الظاهر. راجع حديث ابن الحاج النميري عن زاوية النسائك التي أنشأها السلطان أبو عنان بظاهر سلا القديمة في:
- فيض العباب في إفاضة قدام الآداب في الحركة السعيدة إلى القسنطينية والزاب، دراسة وإعداد محمد بن شقرون، دار الغرب الإسلامي، 1990م، ص 202.

- 9 عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، بيروت، 1975م، ص36.
- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء الثالث : التصوف، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، البيضاء، 1421هـ/2000م. 43-44.
- 10 توفي يعقوب المنصور المريني بقصره بالجزيرة الخضراء سنة 685هـ/1286م، وحمل إلى رباط الفتح فدفن بمسجد شالة . راجع : أحمد ابن القاضي المكتاسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مطبوعات دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1974م، القسم الثاني، ص558.
- 11 أحمد صالح الطاهري، « شالة»، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، المجلد16، ص 5264.
- 12 راجع : إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء الثالث : التصوف... مرجع سابق، ص44-43.
- أحمد بوزيدي، « التصوف بالمغرب المريني وجدل المشروعية»، ضمن : التصوف السني في تاريخ المغرب - نسق نموذجي للوسطية والاعتدال ، سلسلة شرفات رقم 27، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 2010م، ص107.
- 13 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م، ج.1، ص-292 293. وراجع:
- كريخال مارمول، إفريقيا، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي وآخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، 1409-1408هـ/1989-88م، ج.2، ص180 - إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء الثالث : التصوف... مرجع سابق، ص44-43.
- وفي هذا الشأن جاء عند الصديق بن العربي، ما يلي : « الزاوية : مدينة أثرية أسسها أبو يعقوب المريني حول قبر أبي يعقوب الأشقر على بعد 14 ميلا جنوب فاس في جبل كندر» (كتاب المغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت/دار الثقافة، الدار البيضاء، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، 1404هـ/1984م، ص148). ولم يشر هذا الباحث إلى المصدر الذي استقى منه معلوماته، كما يظهر أنه يخلط بين موقعين، هما جبل كندر ومقام أبي يعقوب الأشقر، لأن هذا الأخير معروف بمولاي يعقوب صاحب الحمة وهو في الجهة الأخرى من حوز فاس. وهنا تجب الإشارة إلى وجود ضريح يسمى صاحبه : سيدي يعقوب، في جبل كندر بالفعل، وذلك بالروضة الواقعة في المكان المسمى الزاوية الكندرية، الموجودة شرق الطريق الرئيسية الرابطة بين فاس وإموزار بجبل كندر (راجع :

الحسين البعاوي، «الكندرية»، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1425هـ/2004م، مجلد20، ص 6825-6824). فهل يكون هذا الأخير هو المقصود بزواية السلطان أبي يعقوب المريني؟ لا ندري الآن.

14 لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص 312

15 راجع: أحمد ابن القاضي المكناسي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، مطبوعات دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973م، القسم الأول، ص 558

وقد مدحها محمد بن يحيى بن جابر الغساني المكناسي المتوفى عام 827هـ/1424م، بقوله :

هذا مقام الزائرين لأحمد * من جاء بالقرآن والآيات
يا ليتني أسعى إلى خير الورى * وأقبل الآثار والمجدرات
يا رب جاز القائم بحقه * بتوابع الإحسان والحسنات
واغفر له ولئن أراد بناءه * والسامعين وناظم الأبيات

(المصدر نفسه)

وأصبحت الزاوية تعرف باسم جامع الحجاج، فيما بعد، وكان موقعها بالمكان المعروف اليوم بحي سيدي عمرو الحصري. وعرفت باسمها الأصلي؛ زاوية الحجاج، لاجتماع وفود الحجاج فيها قبل التحاقهم بالركب المغربي العام. راجع: المصطفى بنفايدة، مكناس : جولة في التاريخ والمعالم، شركة الطباعة، مكناس برانت شوب، مكناس، 2008م، ص 50

16 أحمد بن محمد المقرئ التلمساني،، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1406هـ/1986م، ج. 8، ص 356

وعرفت الزاوية الأولى في وقت لاحق بزواية « باب المشاورين ... والثانية بزواية القورجة . وتقع زاوية القورجة برأس عقبة الزيادين [يحيى صدراته، حيث كانت تمتد بموازة سقاية صدراته ثم تنتهي بعقبة الزيادين عند الدرب الذي يعرف بدرب المدرسة ناحية جامع الزيتونة]، وتقع زاوية باب المشاورين عن يسار الداخل لدرب سيدي غريب، قرب ضريح سيدي سلامة من حومة الحمامصيين، [بأعلى زنقة النوار]».

- محمد ابن غازي العثماني، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبدالوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1408هـ/1988م، ص 37-36، وهامش 65 و 66.

والزيادات عند: المصطفى بنفايدة، مكناس: جولة في التاريخ والمعالم، ... مرجع سابق، ص 50.

- 17 أحمد بن محمد المقرئ التلمساني،، نفح الطيب ... مصدر سابق، ج. 8، ص 358.
- 18 حمدي عبد المنعم محمد حسين، مدينة سلا في العصر الإسلامي : دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، نشر مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، 1993م، ص 68
- 19 محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار ... مصدر سابق، ص 32.
- زليخة بنرمضان، « زاوية سبتة (» معلمة المغرب، مجلد 14، ص 4602 - 4603.
- 20 أحمد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، البيضاء، 1954م، ج. 2، ص 39
- محمد العلوي الباهي، علماء تازة ومجالسهم العلمية (مقاربة تاريخية)، مطبعة فضالة، 1425هـ/ 2004م، ص 21-22
- La zaouya mérinide d'Anemli à Taza، Hepéris، 3tri. 1953، p. 528-529 وهي المدرسة التي نزل بها المولى الرشيد عند الشيخ اللواتي . وبتطوع من طلبة هذه المدرسة قضى المولى الرشيد على ابن مشعل، وفيها بدأ الاحتفال بسلطان الطلبة، قبل أن يشتهر بها جامع القرويين.
- محمد العلوي الباهي، علماء تازة ... مرجع سابق، ص 21-22
- وقد بنيت بتازة مدرستان ، إلى جانب الزاوية العنانية.
- أما المدرسة الأولى فهي: مدرسة الجامع الكبير، قبالة الجامع نفسه. وتنسب إلى بانيها أبي يعقوب يوسف، لذلك تسمى اليوسفية . ولا تزال هذه المعلمة قائمة إلى الآن على نمطها القديم. وقد اعتنى بها المولى الرشيد بعد توحيد المغرب انطلاقا من تازة حتى إنها أخذت اسمه، وتعرف اليوم بمدرسة المولى الرشيد.
- والمدرسة الثانية : هي المدرسة الحسنية الواقعة بساحة المشور بتازة العليا . وبانيها هو السلطان أبو الحسن علي المريني، وكانت في عهده فرعاً تابعاً للقرويين . وقد حولت المدرسة إلى مقر للخزانة البلدية، أما الجزء الجنوبي الذي بتر منها على عهد الاستعمار فقد حول إلى مقر لدار القرآن بتازة.
- راجع تفاصيل أخرى عند: محمد العلوي الباهي، علماء تازة ... مرجع سابق، ص 20-21
- 21 محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1996م، ص 67.
- 22 لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب ... مصدر سابق، ص 170
- وقد أنجز جاك مونييه (MEUNIE Jaques) دراسة معمارية مفصلة عن زاوية النساك، نشرها

بمناسبة ذكرى العالم الأثري جورج مارسيسه، بعنوان:

«la Zaouiat En -Noussak : une fondation, Mérinitte aux bords de Salé»,
Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident Musulman,
Hommage à Georges Marçais, Alger , 1957, pp.129-145.

23 لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب... مصدر سابق، ص 171 هامش 2
- عبدالعزيز بن عبدالله، سلا أولى حاضرتي أبي رقراق، منشورات الخزانة الصبحية، سلا،
1989م، ص 97

24 محمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز، تاريخ العدوتين، تحقيق مصطفى بوشعراء،
منشورات الخزانة العلمية الصبحية بسلا، 1406هـ/1986م، ص 58
حمدي عبدالمنعم محمد حسين، مدينة سلا في العصر الإسلامي... مرجع سابق، ص 68-
69

25 راجع: أحمد ابن قنفذ، أنس الفقير وعز الحقيير، اعتنى بنشره وتصحيحه: محمد الفاسي
وأدولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965م، ص 106.
- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء
الثالث: التصوف... مرجع سابق، ص 46

26 محمد بن الطيب القادري، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة
الحادية والثانية عشر، تحقيق هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الآفاق الجديدة
بيروت، 1403هـ/1983م، ص 265. وراجع أيضا :
- محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس ومحاذئة الأكياس بمن أقر من العلماء والصلحاء بمدينة
فاس، تحقيق عبدالله الكامل الكتاني وآخرين، دار الثقافة، البيضاء، 1425هـ/2004م، ج 1،
ص 242

- خالد بن أحمد صقلي، مقدمة تحقيق : معتمد الراوي بمناب سيدي أحمد الشاوي
لعبد السلام بن الطيب القادري، مطبوعات دار الأمان، الرباط، ص 1430هـ/2009م،
ص 10.

27 عبدالعزيز بنعبدالله، معلمة التصوف الإسلامي، ج 1، التصوف المغربي: خواص ومميزات،
دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 2001م، ص 57
28 ابن بطوطة، رحلة : تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، حققه وقدم له
وعلق عليه علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة بيروت، 1405هـ/1985م، ج 2، ص 761
29 محمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز... مصدر سابق، ص 58.

30 علائق أسفي ومنطقها بملوك المغرب، تحقيق علال ركوك، الرحالي الرضواني، محمد

الظريف، منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر، أسفي، 1425هـ/2004م، ص45
31 المصدر نفسه، ص47.

وكذلك تحدث ابن الخطيب عن زاوية المسجد الجامع بأسفي، والتي رتب فيها فقراء للذكر.
راجع: إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م،
الجزء الثالث : التصوف... مرجع سابق، ص 46-47.

32 محمد بن علي الدكالي، الإنحاف الوجيز... مصدر سابق، ص58.

من أشهر الزوايا المرينية التي بنيت داخل المدن: زاوية القراء التي أنشأها أبو عنان قرب جامع
القرويين؛ قال عنها علي الجزنائي: « وأما زاوية القراء، البهية الغراء، التي أمر بها مولانا
المستعين، عن يسار قبلة هذا الجامع، الناطقة بالخير الجامع، المتشاكلة الأوضاع، الواقع على
حسنها الإجماع، التي لم يسبقه إليها أحد من أئمة هذه الأصقاع، فإنه أقامها على ساباط
هنالك، وجعل بقبليها وبجوفها من صناعة الخراط والتقاشير والتزيين بالأصبغة ما يتهيج به
المار والسالك، ورتب فيها قراء يقرءون القرآن، ويختمون في كل سبعة أيام بطول الأزمان،
وأجرى لهم جراية في كل شهر ينتفعون بها، ويرتبون لذلك بسببها، وتم عملها في أواخر
رمضان سنة اثنتين وستين وسبعمئة»/ أوائل غشت 1761م- علي الجزنائي، زهرة الآس في
بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، 1387 هـ/ 1962 م، ص 77-76.

33 محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار... مصدر سابق، ص32. وما يوجد
بين هلالين مفيد جدا، وهكذا ورد في الكتاب نفسه، بتحقيق عبد الوهاب بن منصور،
المطبعة الملكية، الرباط، 1983م، ص32. وراجع أيضا: محمد بن علي الدكالي، الإنحاف
الوجيز... مصدر سابق، ص58 هامش 65

34 حمدي عبد المنعم محمد حسين، مدينة سلا في العصر الإسلامي... مرجع سابق، ص68

35 محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين... مرجع سابق، ص 67

36 محمد حججي، "الزاوية"، معلمة المغرب، مجلد 14، ص 4602

37 محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين... مرجع سابق، ص 68

38 ابن بطوطة، تحفة النظار... مصدر سابق، ج.2، ص762

39 محمد بن علي الدكالي، الإنحاف الوجيز... مصدر سابق، ص58

40 المصدر نفسه، ص59

41 حمدي عبد المنعم محمد حسين، مدينة سلا في العصر الإسلامي... مرجع سابق، ص69-68

42 راجع: محمد بن علي الدكالي، الإنحاف الوجيز... مصدر سابق، ص58 هامش 66

43 راجع: نوال كرامو، الزوايا المرينية الرسمية،... مرجع سابق، ص 84

- 44 عبد الوهاب الديبش، التطور التاريخي للخطاب الديني بفاس بين القرنين السادس والثامن الهجريين 14-12م؛ الأولياء والمجتمع، بحث لنيل دكتوراه الدولة، شعبة التاريخ، مرقونة، خزانة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بفاس - ظهر المهرز، 2004-03م، ص 103
- 45 عثمان عثمان إسماعيل، تاريخ شالة الإسلامية، بيروت، 1975م، ص 36. إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء الثالث : التصوف... مرجع سابق، ص 44-43
- 46 راجع : إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء الثالث : التصوف... مرجع سابق، ص 44-43. أحمد بوزيدي، التصوف بالمغرب المريني وجدل المشروعية... مقالة سابقة، ص 107
- 47 الحسن الوزان، وصف إفريقيا... مصدر سابق، ص 293.
- وقال عنها مارمول : «ما زالت تشاهد آثار بلدة أخرى على بعد أربعة فراسخ ونصف من فاس في اتجاه الشرق، أسسها ثاني ملوك بني مرين. كانت صغيرة جدا، لكن يوجد فيها قصر كبير كان يستعمل قديما كمستشفى، أقام فيه هذا الأمير ضريحه، وإن لم يقبر فيه على ما يبدو، لأنه اغتاله أحد رجاله في تلمسان. ولم يبق من المدينة سوى الأسوار والقصر المذكور، بينما دمر الباقي أثناء حروب سعيد...»
- إفريقيا... مصدر سابق، ج. 2، ص 180
- 48 عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، ج. 1، التصوف المغربي : خواص ومميزات، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 2001م، ص 57.
- 49 ابن مرزوق، المسند الصحيح... مصدر سابق، ص 413.
- 50 محمد بن علي الدكالي، الإنحاف الوجيز... مصدر سابق، ص 58
- 51 أحمد المقرئ، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، منشورات صندوق إحياء التراث المشترك، المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، 1978م، ج. 3، ص 196. محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين... مرجع سابق، ص 69.
- 52 علي الجزنائي، زهرة الآس... مصدر سابق، ص 76
- 53 المصدر نفسه . وراجع أيضا :
- محمد بن الطيب القادري، النقاط الدرر... مصدر سابق، ص 265. وراجع أيضا :
- محمد بن جعفر الكتاني، سلوة الأنفاس... مصدر سابق، ج. 1، ص 242
- خالد بن أحمد صقلي، مقدمة تحقيق : معتمد الراوي. بمناقب سيدي أحمد الشاوي لعبد السلام بن الطيب القادري، مطبوعات دار الأمان، الرباط، ص 1430هـ/2009م، ص 10.

- 54 راجع النصوص الدالة على ذلك عند: نوال كرامو، الزوايا المرينية ... مرجع سابق، ص 58-59
- 55 ابن الحاج النميري، فيض العباب ... مصدر سابق، ص 218. وراجع: نوال كرامو، الزوايا المرينية ... مرجع سابق ص 61
- 56 راجع: نوال كرامو، الزوايا المرينية ... مرجع سابق، ص 20
- 57 محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار ... مصدر سابق، ص 32
- 58 أحمد المقرئ، نفح الطيب ... مصدر سابق، ج. 8، ص 356.
- 59 راجع: نوال كرامو، الزوايا المرينية ... مرجع سابق، ص 62
- 60 محمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز ... مصدر سابق، ص 58
- رأى بعض الباحثين: «أن المرينيين وجدوا في الزوايا حلا لمشكل إيواء الموظفين المتنقلين والتجار الذين لا تصلح الفنادق الصاخبة، والتي قد لا تتوفر على شروط النظافة والمبيت، لإيوائهم . وبذلك جعلوا من بعض الزوايا مراكز إيواء وتعبّد وذكر، وأكثر زواياهم حول المدن لتحقيق هذا الغرض الاجتماعي الديني»
- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء الثالث: التصوف ... مرجع سابق، ص 47.
- 61 فيض العباب ... مصدر سابق، ص 202.
- 62 المصدر نفسه، ص 213.
- 63 محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين ... مرجع سابق، ص 67-66
- 64 المرجع نفسه، ص 67
- 65 محمد حجي، "الزاوية"، معلمة المغرب، ج. 13، ص 4602
- 66 راجع: أحمد ابن قنفذ، أنس الفقير ... مصدر سابق، ص 106.
- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء الثالث: التصوف ... مرجع سابق، ص 46
- 67 راجع: نوال كرامو، الزوايا المرينية الرسمية ... مرجع سابق، ص 64.
- 68 راجع المرجع نفسه، ص 63
- 69 راجع: نفسه.
- 70 محمد بن علي الدكالي، الإتحاف الوجيز ... مصدر سابق، ص 59 هامش 68. ينقل ابن قنفذ كلامه من أنس الفقير، لكن ابن قنفذ يسميه: مسجد العلاني، بالنون، وليس باللام. راجع: أنس الفقير ... مصدر سابق، ص 83.

- 71 محمد الأنصاري، اختصار الأخبار مصدر سابق، ص 35. وراجع: نوال كرامو،
الزوايا المرينية الرسمية ... مرجع سابق، ص 65.
- 72 ابن الحاج النميري، فيض العباب ... مصدر سابق، ص 214. نوال كرامو، الزوايا المرينية
... مرجع سابق، ص 62
- 73 أنس الفقير ... مصدر سابق، ص 83
- محمد بن علي الدكالي، الإنحاف الوجيز... مصدر سابق، ص 59، هامش 68
- 74 تحقيق أدولف فور ومحمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط،
1965م، ص 83
- 75 محمد حجي، "الزاوية"، معلمة المغرب، 1422 هـ / 2001 م، المجلد 13، ص 4602.
- 76 ابن الحاج النميري، فيض العباب ... مصدر سابق، ص 216 - 217. محمد حجي،
"الزاوية"، معلمة المغرب، مجلد 14، ص 4602
- 77 إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء
الثالث : التصوف... مرجع سابق، ص 46-47.
- 78 المرجع نفسه، ص 46.
- 79 راجع: محمد حجي، "الزاوية"، معلمة المغرب، مجلد 14، ص 4602
- 80 فيض العباب ... مصدر سابق، ص 43-42. وراجع: محمد بن علي الدكالي، الإنحاف
الوجيز ... مصدر سابق، ص 58 هامش 67
- 81 راجع: ابن الحاج النميري، فيض العباب ... مصدر سابق، ص 214. نوال كرامو، الزوايا
المرينية ... مرجع سابق، ص 21-20
- 82 محمد المنوني، ورفات عن حضارة المرينيين... مرجع سابق، ص 67
- 83 راجع: أحمد ابن قنفذ، أنس الفقير ... مصدر سابق، ص 106.
- إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء
الثالث : التصوف... مرجع سابق، ص 46 محمد العلوي الباهي، علماء تازة ... مرجع
سابق، ص 22-21
- 84 راجع نوال كرامو، الزوايا المرينية ... مرجع سابق، ص 21-20
- 85 راجع: ابن الحاج النميري، فيض العباب ... مصدر سابق، ص 214. وراجع: نوال كرامو،
الزوايا المرينية ... مرجع سابق، ص 21-20
- 86 زليخة بن رمضان، "زاوية سبتة"، معلمة المغرب، مجلد 14، ص 4602-4603.
- 87 أحمد بوزيدي، التصوف بالمغرب المريني وجدل المشروعية ... مقالة سابقة، ص 107.

88 راجع: علي الجزنائي، زهرة الآس في بناء مدينة فاس... مصدر سابق، ص 29.
 89 مثل الشيخ إسحاق بن مطر الورياغلي المعروف بالأعرج، الذي بالغ في مجاهرة السلطان أبي يعقوب يوسف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لقد اضطر السلطان إلى طرده من البلد، بعد أن أعياه أمره، قبل أن يضطر إلى التراجع عن قراره ويلبي طلباته، حتى أنه خرج من المدينة الإدريسية، وبنى له في المدينة البيضاء (ابن عيشون الشراط، الروض العطر بأخبار الصالحين من أهل فاس، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، 1997، ص 289). أما الشيخ أبو عبد العزيز القروي فقد تجرأ على السلطان أبي الحسن في قضية مغارم، حتى اضطر هذا الأخير إلى ضرب الشيخ بسكين وهي في غمدها (المصدر نفسه، ص 290). كما لقي أبو الحسن من الشيخ الهزميري العنت، عندما رغب في زيارته والتبرك به (ابن مرزوق المسند ... مصدر سابق، ص 158) تماما كما لقي أبو عنان من الشيخ ابن عاشر، حيث رفض لقاءه، كما هو مشهور.

90 إبراهيم حركات، مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى القرن 9هـ/15م، الجزء الثالث: التصوف... مرجع سابق، ص 46

91 راجع: نوال كرامو الزوايا المرينية... مرجع سابق، ص 70-72

92 محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين... مرجع سابق، ص 69

عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، ج 1، التصوف المغربي: خواص ومميزات، دار الرشاد الحديثة للنشر والتوزيع، الرباط، 2001م، ص 228

93 راجع: محمد المنوني، ورقات عن حضارة المرينيين... مرجع سابق، ص 67. محمد

حجي، "الزاوية"، معلمة المغرب، مجلد 14، ص 4602

94 عبد الوهاب الديبش، التطور التاريخي للخطاب الديني بفاس... مرجع سابق، ص 104 هامش 3

95 راجع: لسان الدين ابن الخطيب، نفاضة الجراب... مصدر سابق، ص 171، هامش 2. وراجع:

حمدي عبد المنعم محمد حسين، مدينة سلا في العصر الإسلامي... مرجع سابق، ص 68-

69

96 محمد بن علي الدكالي، الإنحاف الوجيز... مصدر سابق، ص 58

97 محمد ابن غازي العثماني، الروض الهتون... مصدر سابق، ص 37، هامش 65

98 المصدر نفسه، ص 37، هامش 66

99 المصطفى بنفايدة، مكناس : جولة في التاريخ والمعالم ... مرجع سابق، ص50

100 خالد بن أحمد صقلي، مقدمة تحقيق : معتمد الراوي ... مصدر سابق، ص10

101 صحيح تأسست بعض الزاويا على شاكلتها في العهود الموالية، ومنها زاوية الحزاين التي أحدثها السلطان عبدالله الغالب السعدي قرب جامع القرويين "بعد السبعين وتسعمائة، واعد لها جرايات على ذلك... وعين أن يقرأ بها ختمة في كل شهر على عادة المحراب وسورة الكهف في كل يوم جمعة بعد صلاة العصر وعددا من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم إثر القراءة كل يوم وعددا آخر بين العشائين في ليلة الاثنين والجمعة" (أحمد ابن القاضي، جذوة الاقتباس... مصدر سابق، القسم الأول، ص 75)، لكنها تبقى حالة منعزلة.



